يمنى جاد

قابل للخلود

إلى ذاك الغريب الذي أضحكني يوم كنت حزينة بلا سبب والذي كلما تذكرته رغم مرور ما يزيد عن خمس سنوات أبتسم من قلبي لا إراديا، فلتسعد في حياتك بقدر السعادة التي أدخلتها - ومازلت- إلى قلبي. .

****

-من يسكن الروح كيف القلب ينساه؟!-

تجلس في ركن بعيد هادئ في ذاك المطعم المطل على النيل مباشرة والذي كانت تائهة في زرقته شاردة في رقصات حبات المطر الرقيقة على صفحته.
تعشق هذا المكان حد الجنون!
وكيف لا تعشقه وقد رأته وتحدثت معه فيه أول مرة؟
كيف لا تعشقه وكل ركن، طاولة، مقعد، وحتى تلك المناديل الورقية تذكرها به. . .
هناك أشخاص حين تمر بحياتك حتى وإن كان مرورا عابرا كرقصاته القصيرة على شرايين قلبها تشعر أنها تترك بصمة ثابتة لا تمحى بسهولة في روحك لدرجة تجعل جميع الجمادات حولك تكاد تنطق باسمه!
وكان هو أحدهم. .
عادت بذاكرتها للوراء قليلا، تحديدا إلى ذاك اليوم الذي رأته به أول مرة. .
كانت تجلس في نفس المطعم وكان اليأس يقترب إليها في كل ثانية تمر عليها بمفردها، فقد كانت على موعد مع من ظنته في يوم حبيب.
ثانية. . عشر ثوانٍ. . ستون دقيقة. . ساعتين. . خمس. . أين هو؟!
فرت دمعة وحيدة من عينيها وقد أخفضت رأسها إلى الطاولة حتى لا

يلحظها أحد وينظر إليها بشفقة هي في غنى عنها الآن.
لكن. .
وأثناء جلوسها حدث ذلك الشيء الغريب المصاحب لظهور الأشخاص المميزين في حياتنا، حيث تقدمت إحدى النادلات التي تعمل في المطعم إليها وعانقتها عناقا طويلا دافئا لم تنعم بمثله من قبل، شعرت بالبرودة تحتل أطرافها فور ابتعادها عنها، نظرت لها بتساؤل فابتسمت لها ابتسامة حنونة وهي تمد إليها منديلا ورقيا فنظرت له بتعجب إلا أنها أخذته في النهاية، وبعد أن قرأت محتواه ابتسمت بسعادة حقيقة وكأنها لم تكن على وشك البكاء منذ دقائق بسبب رؤيتها لما خطه ذلك الغريب، حيث كتب لها: عيناك رائعة للدرجة التي تجعلني أتمنى قتل من كان سببا في بكائها!
نظرت حولها بتفحص علها تستطيع رؤية صاحب هذه الأحرف التي دخلت قلبها مباشرة وبدون مقدمات ولكن هيهات فهو رحل بعدما اطمأن أنها استلمت رسالته.
ظلت تتردد على هذا المطعم كل يوم تقريبا على أمل رؤياه والشوق يكاد يفتك بها إلا أنه في كل مرة كان يترك لها رسالة ويذهب، وفي مرة من المرات قررت اتباع نفس منهجه وخطت على منديل ورقي: لو تعلم كم أحترق شوقا لرؤياك لم تكن لتختفي كل هذا المدة، لقد بت أشك أنك من وحي خيالي فقط لا أكثر، متى سأتمكن من رؤيتك؟
كان بداخلها شعاع بسيط من الأما يخبرها أن اللقاء قد اقترب لكن رده وأد هذا الشعاع قبل ظهوره حيث أخبرها: أفضل الابتعاد عن روتينية اللقاءات المدبرة وترك كل شيء للصدف. .
ومن يومها قررت -وكالعادة- اتباع منهجه.

وبعد أن كانت فقدت الأمل في رؤيته في الواقع واكتفت بما نسجته في خيالها اقتربت منها تلك النادلة صاحبة العناق الدافئ تخبرها بكل هدوء:
هل ستحضرين حفل خطبة أستاذ نور؟
فسألتها بتعجب: ومن أستاذ نور؟
فردت بذهول: معقول؟! هل حقا لا تعرفين من هو؟ يراسلك منذ أكثر من شهر ولا تعرفين حتى اسمه.
إذن اسمه نور. . اسم على مسمى فهو أنار حياتها بعدما ظنتها أعتمت، لكن. . عن أي خطبة تتحدث؟!
ظل هذا السؤال يدور في رأسها خلال أيام انقطعت فيها رسائله وانقطع معها أي أمل بداخلها للقائه واكتفت بتلك الصورة التي رسمتها له في خيالها، ووقعت في غرامها والذي يدعمه تلك الرسائل التي زودها بها قبل اختفائه.
حتى استيقظت من شرودها ذات يوم على ظل ضخم يقف أمامها ويحجب عنها الضوء فنظرت له بانزعاج فسارع هو بالتحدث قبلها: مرحبا يا ذات العيون الرائعة؟ كيف حالك؟
لم تأخذ الكثير من الوقت حتى تعرفه فلا غيره يتغزل بعينها. .
ولكن كيف له أن يسألها وبكل بساطة وكأن شيئا لم يكن؟
ألا يعلم كيف شعرت في تلك الأيام التي اختفى فيها فجأة؟
ألا يعلم كم دمر غيابه روحها وقلبها معا؟
على ما يبدو أن دقات القلب دائما لا تجلب إلا الشقاء وهذا أكثر شيء أصبحت متيقنة منه، حاولت قدر الإمكان أن تتمالك نفسها وهي ترد عليه: عفوا؟
تأملها ثانية قبل أن يقول: أعتذر يبدو أني مخطئ!

ورحل. . .
رحل بسرعة البرق كما ظهر فجأة. .
قد يعتقد أنها نسته، أو لم تتعرف عليه من الأساس ولكن إن كانت هي فعلت فقلبها لن يخطئه أبدا.
فقلبها سقط أسيرا لحروفه منذ الوهلة الأولى.
قد يكون رحل نهائيا بلا رجعة إلا أنه شخص قابل للخلود، شخص سيعيش داخل قلبها للأبد. تستطيع أن تحبه وحدها في صمت.
فهذا النوع من الحب أفضله، فلا يجلب الحزن أو الشقاء، ويجعلك تعيش كل ما تحلم به وتتخيله دون أن يعكر أي شيء صفو حياتك.
فلتحبه في خيالاتها إذن. .
فكم من شخص يحيا على تلك الخيالات!
وكم من عابر يترك أثرا لا يمحى حتى بمرور الزمن.
كانت مجرد رسائل عادية إلا أنها أدخلت السرور إلى حياتها كما لم يفعل أي شيء من قبل، قد يرجع ذلك إلى حاجتها الشديدة إلى السعادة أو قد تكون حاجتها للحب أو الاهتمام ولكن أيا كان السبب فذاك الغريب لن يستطيع أي شيء محوه من ذاكرتها، سيظل دائما يطوف بعقلها وقلبها معا هو وخيالاته التي نسجتها في أحلامها.
إن لم تمتلك تلك الخيالات التي تمدك بالفرح فلا تقف ساكنا واسعَ إلي بثها في أحلام غيرك. .
اسعَ لتكون شخصا قابلا للخلود حتى بعد فنائك. .

****